



عبد الرزاق بن حسن بن إبراهيم البيطار الميداني الدمشقي: عالم بالدين، ضليع في الأدب والتاريخ.

ولد في أسرة علمية مجيدة عريقة، وفي بيت كريم مشهور بالعلم والعلماء، فوالده من أجل العلماء في ذلك الوقت، وخلف أربعة أبناء يرزوا في العلم والفضل، ويصف المؤلف هذا البيت بقوله: «فآل البيطار بيت علم وفضل»، ويستشهد بقول العالمة عبدالحفيظ بن الطاهر الفاسي «بيت البيطار من البيوتات العلمية بدمشق الشام، وقد تعدد فيهم العلماء»، ويختلف الحديث عن نسبه وأصله ومسقط رأسه بالحديث عن شيوخه وتحصيله حيث إنه تعلم القراءة والكتابة وكان ذلك بعد سن التمييز ثم حفظ القرآن الكريم وجاؤه على شيخ قراء الشام الشيخ الحلواني، وكان لوالده دور كبير في تعليمه وتلقينه حيث إنه حفظ المتنون في مبادئ العلوم على والده، كما أنه كان حريصاً على دروس والده الخاصة وال العامة.

وبعد أن بلغ الشيخ عبد الرزاق البيطار رحمه الله تعالى سن الرشد جاب البلدان وعرف قدر الرحالة وفضلها وأشار المؤلف إلى حبه للرحالة حباً عظيماً لاسيما في وقت الربيع، وبدا هذا واضحاً في مؤلفاته، ويقول المؤلف ما نصه: «رحل العالمة البيطار إلى عدة بلدان كالقاهرة واستانبول وإلى المدن المجاورة لبلدة دمشق كالقدس وبيروت وإلى جملة من محافظات الشام».

ومن جميل قول العالمة البيطار في الحث على الترحل قوله: «فعليك بالتغرب لترى الدنيا، وتدرك المنى، وإياك وخبث الطوية، وخوف المنية، فإنها لا تُدفع في الوطن والحضر، ولا في الغربة والسفر»، هذا وقد عاش هذا العالمة في عصر وصفه المؤلف بأنه عصر جمود وتصوف فيه غث وسمين وصحيح وسقيم ويقول عن المترجم له: «فعاش الشيخ البيطار في هذا العصر متأثراً بشيوخه وأبناء عصره، ولكنه لما ظهر له الحق رجع عن تلك الآراء والأفكار، كشأن كل عالم عاقل محب للحق وأهله»

وكان حسن الصوت، وله نظم. و Ashton بالآداب مدة، واقتصر في آخر أمره على علمي الكتاب والسنة. وكان من دعاة الإصلاح في الإسلام، سلفي العقيدة، وقوراً، حسن المفاكهة، طيب النفس. ولقي في سبيل ذلك عنتاً من الجامدين. ومن كتبه (حلية البشر في تاريخ القرن الثالث عشر - ط) ترجم به معاصريه، و (الرحلة) اشتمل على عدة رحلات إحداها القدسية والثانية البعلية.



ومما يلفت النظر في هذه الشخصية النابغة جلوسه للناس على طبقاتهم المختلفة، فيجلس إليه العالم والكاتب والشاعر والزارع والصانع والتجار، فيملي عليهم من قوله و قوله، ويسعدهم بقليله وكثيره، ويتبادل معهم الآراء، ويناقش معهم الأفكار، فيخرجون من عنده مسرورين، ويرضاهم عنه متوجين، وذلك فضل الله تعالى يؤتيه من يشاء والله ذو الفضل العظيم، والمن الجليل.

ونذكرني حل الزمان وطبيه

مجالس قوم يملؤون المجالسا

حديثاً وأشعاراً وفقها وحكمة

وبراً ومعروفاً وإلهاً مؤانساً

والشيخ البيطار صلات بعلماء عصره، وأعلام زمانه خاصة صحبته الأكيدة للعلامة جمال الدين القاسمي، وكان بينهما رسائل ودية، ومكتبات أخوية، ومساجلات علمية وقد حباه الله أن يمسك بزمام النظم والنشر، بل إنه حاضر البديهة، وقوى الفطنة، وطلق اللسان، فهو من يقول الشعر على الارتجال والبداهة، وبينه وبين علماء وقته صول وجول في ميدان الشعر، وبينه وبينهم أيضاً شيء كثير في هذا المجال، وقد وصفه المؤلف محمد بن ناصر العجمي بقوله (برع العلامة الشيخ البيطار في علوم اللغة والأدب والشعر، فقد آتاه الله قلماً سيالاً، وعبارة قوية، وكلمات رصينة متينة كانت منه على طرف الثمام، مما جعله يدبح الشعر والنشر، حتى إنه في كثير من الأحيان كان يقول الشعر ارتجالاً)،

وما أحسن عبارة المؤلف حين يقول: «وبالجملة فقد كان كشكولاً أديباً متحركاً، تستاق النفوس إلى مجالسته ومسامرتة» ومن وصفه أيضاً فأبدع، العلامة محمد كرد علي كما ظهر هذا من نقل مؤلف الكتاب عنه، وكان للعلامة محمد كرد علي رأي في مستوى شعره، ومن المفيد أن أنقله للقارئ ونصه كالتالي: «نظم الشعر، ومنه بعض المقاطيع والموشحات المشهورة المتداولة، ونظم أرقى من نظم الفقهاء ودون شعر المفلقين من الشعرا وكتابته على طريقة السجع القديمة»، وأفاض المؤلف في ذكر إجازات الشيخ رحمه الله تعالى وتنبيّق أهميتها من قول مؤلف الكتاب: «الإجازة في كتب الحديث وغيرها من العلوم مما يحرص عليهم أهل العلم خصوصاً في تلك الحقيقة، وذلك لأنها تربطهم بكتب المتقدمين وأثباتهم، ولذا حرص عليها الشيخ عبد الرزاق البيطار كما أنه لم يدخل بها على طالبيها، وذلك لمن رآه أهلاً لها»، وكان المؤلف يصور من مخطوط الإجازات صورة، ثم يتبع ذلك بالإجازة كاملة على نسق الطباعة الحديثة. ومنها:

ما قاله الجمال القاسمي: "صورة إجازة فريد العصر الأستاذ الهمام الأثري، صفياناً الشيخ عبد الرزاق البيطار:

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله الذي رفع منار الكتاب والسنة، وأوسع بهما على هذه الأمة جزيل الملة، وكشف عن محيا الملة محمدية بهما حجاب الغمة، وعطف عليها بوافر نوافلها، وأكمل لها الفضل وأتمها، أحمسه على أن أعلى قدر أهل علومه في كل زمان، وأولاهم ما أولاهم من جليل الإحسان، وجميل الامتنان، وأظهرهم على الحق بيراهين السنة والكتاب، ونظمهم في سلك أحبابه، وعصمهم عن الميل عن نهج الصواب.

فهم المؤيدون بالاستدلال بدلائل الملة السمحنة والشريعة الغراء، والمقيدون بقيد الآيات القرآنية، وأحاديث سيد الأنبياء، والمتقلدون بقلادة المسانيد الشريفة، وأخذها عنهم إذن وإجازة، والمتفردون دون غيرهم باتباعهم لمن عرفوا طريقه

فجازوا مجازه، فلا يعتمدون غير الوارد من الأقوال، ولا يستندون في نقلهم إلا لمن له في ذوي الكمال اتصال، وإن ذلك لمن أهم الأمور التي اعتبرها أهل الحديث، وأجل الشروط التي لم يعتراها لديهم تنقيب، ولا تبيح.

والصلة والسلام على من أوجده الله له هذا الوجود (قال العجمي: " هذا كلام فيه نظر، ولا دليل عليه من كتاب أو سنة أو أثر")، وأفاض به على العالمين سواعي المتن، ونوابع الجود، سيدنا محمد الذي أوتي السبع المثاني والقرآن العظيم، وأسرى به الملك الجليل من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى في الليل البهيم، وخطابه بما يدل على رفعة قدره على الخلق أجمعين بقوله: { وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ } [الأنبياء: 107] ، وعلى آله الذين طهرهم من كل عيب تطهيراً، ونزعهم بلا ريب وأعد لهم جنة، وحريراً، وأصحابه السادة المستوين على عرش الاقتداء، والمتصنفين بكمال الاتباع، والمحتوين على شريف كمالاته، فهم أصدق متبع وأرقق داع، وعلى التابعين وأتباعهم، ما لمعت بوارق السنة، وسطعت أسنة النصر، صلاةً وسلاماً لا يحيط بها عد ولا حد حصر.

أما بعد: فإن العلوم كثيرة، والنافع منها دلى الله يسيراً؛ والرسوم عزيزة، وليس لنا سوى ما رسمه السيد البشير، فالسعيد كل السعيد من أقبل عليه كل إقباله، وقصر عليه جليل أفكاره، وجميل مائه، ألا وهو علم الشريعة المطهرة التي هي القرآن والحديث، المنوه بشأنهما، والمعمول بهما وجوباً في القديم والحديث، إذ بهما كمال الترقى إلى أوج التأديب، وتمام التوفيق مما يوجب التنقيب والتهذيب، فهما نور العيون، وضياء ظلمة القلوب، وهما الوصلة العظمى بين الرب والمربوب. ولذلك لم تزل أكابر العارفين يبذلون في تطلبها نقد حياة المهج، وأفاخر العلماء العاملين يخوضون في العمل بهما بحجج البحور وبحور اللجج، حتى أصبحت لديهم مناهج هذه المقاصد المحمدية سهلة الوصول، ومدارج هذه المعارج الأحمدية جامعة بين الأمل والمأمولة.

فهؤلاء هم الذين كشف الله عن عين بصائرهم الحجاب، وسلكهم مسالك الوصول إلى دائرة الحق، ونقطة الصواب، وانكشفت لهم حقائق الوقوف على خير العمل، وانقادت لهم صعب الأماني وحصل لهم منتهى الأمل، وسلموا من تسليم زمام دينهم لغير منْ أمرهم بارئهم بالتسليم إليه، وعلموا أن الاعتماد عليه فوز بالسعادة لديه.

فلذا لم يتحركوا بحركة إلا ولهم شريعة العمل بها شهودٌ عدولٌ، ولم يقولوا بمسألة إلا وقد ثبت فعلها عن أشرف رسول، أليس يقول من لا إله إلا هو: { وَمَا آتَكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ } [الحشر: 7]. أيظن حينئذٍ ظانٌ أن يُفلح أحدٌ بعمل دليله القيل والقال، أو ينجح بتركه للأصلين، وتمسكه بذيل البحث والجدال، أين هو من قول من أنزل القرآن، وكلم موسى تكليماً؟

{ فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنفُسِهِمْ حَرَجاً مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا } [النساء: 65].

فهذا هو المنهل العذب لكل تقي عابد، والمعقل الرحيب الذي ما صد عنه إلا جاهم أو مكايد أو معاند، والمدار الأعظم الذي تدور عليه رحى النجاة، والمنار الأفخم الذي ما أمهَّ ذو حاجة إلا ونال ما رجاه، فمن اعتمد بحبه المتين إن تكلم سمعتَ واضح البيان من صريح تبيانه، أو استدل فهِمَتَ صحيح الاستدلال من فصيح لسانِه.

وإنَّ ممَّنْ نَهَجَ مَنَاهَجَ مَنْ غَيْرَهُ، ولهَجَ مُنْذُ نَضَجَ رَأْيُهُ بِالكتابِ والسنةِ والأثرِ، وارتَأَتَهُ العلَيَّاءُ مَرَأَةُ مُحِيَاها، وجذبَتَهُ المَحَاجَةُ البيضاء لأن يكون نشأة حمایها (يقول العجمي: " حميأ) كل شيء شدته وحدته ومن الشباب أوله ونشاطه، " المعجم الوسيط" (208)، نقطة فؤادي، الفالح الصالح، ومدار دائرة ودادي الناجح الراجح، الذي جمع شمل الفضائل العلية بعد شتاتها، ورتع في رياض الشمائل النبوية فكانت لنفسه طيب حياتها، ولازم ربوع الأصلين فلا يزيف عندهما ولا يزول، وشاد لنفسه حسناً حسيناً فلا يحيد عنه ولا يحول، الأخ في الله الشيخ جمال الدين أفندي ابن الأخ الإمام، والفضل الهمام، الشيخ سعيد أفندي ابن الجهد الأكمل، والعمدة الأفضل، الشيخ قاسم أفندي الشهير بالحلاق، أجزل الله لنا ولهم الأجر والثواب، وحضرنا

واباهم في زمرة سيدنا محمد لباب الألباب، وكعبة طواف الأحباب.

فإنه أحسن الله إلينا وإليه، وعطف بمنه وكرمه علينا وعليه، قد ظنَّ بهذا الفقير أنه قد تحلَّ بالمحن وتخلَّ من المحن، فطلب مني أن أجيزه بما تجوز لي روايته، وتنسب إلى قراءته ودراسته و درايتها، مما أخذته عن شيوخي الأفاضل، وسادتي نوي المناقب والمراتب والشمائل، ولم يدر أني لست لذلك أهلاً، ولا من يحق له أن يدوس هذا البساط أصلاً، ولا من يستحق أن يجاز فيكِ يجيز، ولا من يرى الفرق بين المجاز والتجويز، فتمنعت جهدي عن ذلك، لمعرفتي بأنني لست أهلاً لسلوك هذه المسالك، وأن بضاعتي مزاجة، واعترافي بذلك نجا، فأصرَّ على ولم يلتفت لقالي، واستمر ولم يمنعه إخباري بضعف حالي، فحينئذ ساعدته على مطلوبه، ووافقته على مرغوبه، وتوكلت على الله القدير بعد أن استخرته، ثم توجّهت إلى هذا المستجير العزيز وأجزته بما تجوز لي روايته عن قادتي العلماء الأعلام، وسادتي الأفاضل الأجلاء الكرام، من دمشقيين، ومصريين، وغيرهم، ومن سما علو مقامهم وقدرهم.

وإن من أجلهم لدى، وأمنهم في الحقيقة علي، سيدني وسندي وعمدتي ومعتمدي، من لي به كمال الفخار، والدي الشيخ حسن أفندي البيطار، فإنه أجازني بالإجازة العامة والخاصة كما أجازه شيوخه ذوو التقوى والفالح، بسائر الفنون المدونة وعلى الخصوص بكتب الصِّحاح، عن شيخه الشيخ عبد الرحمن الكُبْرَى شيخ الشام، عن والده الشمس محمد الكُبْرَى الشهم الهمام، ثمَّ بالسند المتسلسل إلى مؤلفيها السادة الحفاظ العظام، البخاري، ومسلم وأبي داود، والترمذى، النسائي، وابن ماجة هداة الأنام، كما هو مرقوم في محله، ومعلوم لدى ذويه وأهله.

وإن لي بحمد الله طرفاً عديدة، وأسانيد صحيحة سديدة، وبعضها متصل بالسيد محمد الأمير، وبعضها متصل بغيره من العلماء ذوي القدر الشهير، وذلك معلوم من الآثار، ومذكور في دواوين الإجازات.

وإنني لراج من هذا المستجير، ومتأمل من هذا الطالب العزيز، أن يمدني بدعواته في خلواته وجلواته، وأن يكون ملازماً على ما شرطه الأفاضل التمسك بذوي الكمالات والفضائل.

والله أسأل، وبأشرف أنبيائه أتوسل (قال العجمي): "هذا من التوسل غير المشروع كما نص على ذلك شيخ الإسلام ابن تيمية في كتابه : "قاعدة جليلة في التوسل والوسيلة") أن يتفضل علينا وعليه بتمام المراد والمرام، وأن يختم لنا وله وللمسلمين بحسن الختام.

في 3 ذي القعدة الحرام

سنة ألف وثلاثمائة وخمس عشرة

عبد الرزاق ابن المرحوم حسن المعروف بالبيطار - عفي عنهما-

انظر (مجموع الإجازات الموقعة بخطوط شيوخ الشيخ جمال الدين) ص: 32- 28، و(مجموعة لطيفة في نصوص إجازات شريفة) (ص 21- 25)، نقلأً عن: وليد القرن الأولى، إمام الشام في عصره جمال الدين الفاسمي سيرته الذاتية بقلمه، محمد بن ناصر العجمي، ص 203- 208، ط. دار البشائر 1430هـ، أديب علماء دمشق الشيخ عبد الرزاق البيطار حياته وإجازاته، بقلم محمد بن ناصر العجمي، ص (70- 75)، ط 1. دار البشائر الإسلامية. 2000م)

ومن رسائل الشيخ عبد الرزاق البيطار رسالة لأخيه سليم - رحمهما الله .

قال الشيخ محمد بن ناصر العجمي عن الشيخ عبد الرزاق البيطار: " ومن مكارم أخلاقه المرضية، ومحاسن مداعبته المضية قوله في قصidته الرائية ملطفاً بعض أحبابه، وممازحاً بعض أتراه، وذلك دليلاً على مكارم أخلاقه حين كان خارج دمشق متذمراً ما يزعج أمثاله، من الكبد والمشق، وكان بمحل يقال له المُزَبِّرِيب قوله في رسالة مخاطباً بها على طريق المراسلة، وهو لأخيه الشيخ سليم يصف سكانه بدار صفتها ما سينذكره:

سلام يا مني قلبي *** علي من حظه أوفر
سليم قرة العين *** شقيق الروح ذا الأندر
إإن جاز السؤال على *** أخيكم ربه أخبر
بأن الشوق أضناه *** بغير الوصل لا يجتر
أضر الوجود بي خلي *** وفي الأحساء قد أثر
إذا جئتم علي بالي *** يكاد القلب يتفتر
ففي تاريخ ذا صبحا *** جلسنا نبتغي المعاشر
شربنا القهوة السودا *** وفيها البن والسكر
بوسط الحجرة الفضة *** وفيها الفار يتختبر
و فيها النمل والنامو *** سُ والبرغوثُ ما قصر
وفيها هرتك العثي *** وفيها مقعد أحمر
ولا تسأل عن الجردا *** ن مثل الهر أو أكبر
وسامُ أبرص يمشي *** على الجدران لا يحصر
ولإن أنهيت عن حالي إل *** خنافس ويلها أكثر
وللصرصور أصوات *** علي رناتها نسكر
وفيها البخش في السقف *** لأجل اللطف والمنتظر
خفافيش بها تسعى *** ولدغ مائل النشرت
وللذبان تنقيط *** ولدغ مائل النشرت
وفيها النمل ثم القم *** وللذبان تنقيط
إإن قلت بها دلم *** كل أما السوس لا ينكر
أقول العفو يا خلي *** كل أمما طلاقه شرقاً
لbul أخيكم الأكبر *** وفيها طلاقه شرقاً
وفيها الشرب ثم الأكس *** وفيها الشرب ثم الأكس
ثم الحر والطرسر *** وفيها الترثم الفر
و فيها الفش ثم الطش *** ثم الفش يتيسسر
وما شفنا بلا مضمون *** بها مسكن ولا عنبر
فقبلتها قضاء البر *** ج ثم الحُش والمعرف
شماليها طريق الشا *** م والشرق به العسكر
ولا أحكي عن الغربي *** فيه الفاضل الأقمر
سليل الفضل قاضينا *** شهر العلم ذا الأفخر
فلا زال العلي يسمو *** به فخراً إلى المحشر
ولا تسأل عن الغير *** فإن الشر لا ينشر
فلا أبديه يا حبي *** ولو أسفقتي السكر
وسلم لي على قلبي *** نظير الجامع الأنور

ونور العين أَحْمَدُنا *** شهير اللطف والأشهر
وحلَّيْهِ هو التالِي *** وإن تسمع ولا تسخر
وأحضر ذهنك الباھي *** لما يتلى ولا تضجر
وإن أَحضرت مُحَمْودًا *** قدِيمٍ لِيس بالمنكر
وفهمه بِالطاف *** سلامي العالِي الأَبْهَر

(أديب علامة دمشق الشيخ عبد الرزاق البيطار حياته وإجازاته، بقلم محمد بن ناصر العجمي، ص (60. 62)، ط. 1. دار
البشائر الإسلامية. 2000م).

وقد عُرف رحمة الله تعالى بالترفع عن الدنيا، وعدم التربع على مناصبها، زاهداً ورعاً في علمه وتعليمه، وكان يلقي دروسه
في جامع كريم الدين المشهور بالدقائق، وأحياناً في حجرته الخاصة به في الجامع، وفي بيته الخاص به أيضاً، وهيأ الله له
مكتبة نفيسة جمعت أجود المطبوعات، وأحسن المخطوطات، وله مؤلفات لم يسعفه الدهر في تحريرها ونشرها، إلا كتابه
«حلية البشر في تاريخ القرن الثالث عشر»، حيث طبع بتحقيق حفيده العلامة محمد بهجة البيطار، وقد علل العلامة محمد
كرد علي هذا الأمر بقوله: «والمؤلف على ما ظهر لنا من صداقتنا معه أعظم في اجتماعاته منه في كتبه، لأن معظمها قد كتبه
بسرعة قبل أن يفتح عليه فيما اشتهر عنه في آخر عمره، وكم من عالم رزق الحظ ولم يرزقه فيما يخطب ويعكسه، ورب
شاعر لا ينشر، وناشر لا ينظم»، وبعد هذه الحياة الطويلة الحافلة بالجذ والإجتهداد، والعلم والعمل كانت وفاته في عاشر ربىع
الأول من سنة 1335هـ، رحم الله أديب دمشق وعالمه، وأسبغ عليه حلاً وارفة من الرحمة والمغفرة والرضوان.

المصادر:

1. الموسوعة الشاملة
2. الألوكة
3. هيئة الشام الإسلامية
4. صحيفـة الجزيرة السعودية العدد 10524
5. ملتقى أهل الحديث

المصادر: